التجربة الشعورية في شعر أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي: دراسة أدبية لنماذج مختارة

د. فاطمة محمد الثاني

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد. إن الشعر من الأعمال الأدبية التي تعين الشاعر للتعبير عن مشاعره الداخلية. والشعر في جوهره ليس إلا تعبيرا عن شعور داخلي من الشاعر، وينبع الشعر الجيد الصافي بشعور مؤثر؛ لذلك يقال "الشعر منبعه الشعور".١ والشاعر الحقيقي هو من يقدر على إيصال ما في وجدانه إلى المستمع إليه، عن طريق استعمال مختارات من الألفاظ والتراكيب التي تناسب موضوع شعره. فالشعر والشعور يمشيان معا في بناء النص الشعري بناءا منطقيا ومتينا، وهما معينان للتجربة الشعورية لدى الشاعر. والتجربة الشعورية هي تلك الحالة النفسية والعقلية التي تعين الشاعر في إبراز موقفه العاطفي وقت قرض الشعر، وهي من العوامل التي تحدد مدى إبداعية الشاعر في الكشف عن عاطفته وإحساسه، كما هي عنصر أساسي قوي لبناء عمل فني بناءا جذابا، كما هو المقياس الذي يعتمد عليه الباحث للوصول إلى العلاقة الرابطة بين الشاعر وشعره من ناحية وتلك العلاقة الجوهرية الموجودة بين الشاعر وقارئ قصيدته أو المستمع إليها من ناحية أخرى.٢ ولها عناصرها المحددة التي تتمتاز بها في الأعمال الفنية. وقد شاركن النساء الرجال في قرض الشعر منذ العصور القديمة في نيجيريا، وكانت الشاعرة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي من جهابذ الأدباء الأعجميين النيجيريين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي، وساهموا في تطوير التعليم العربي والإسلامي. نشأت أسماء في بيت العلم والجاه، وتركت آثارها العلمية والدينية والأدبية في ديار نيجيريا، وكان لها مساهمة قيمة نحو تنمية مجتمعها وبث الخير بين نساء قومها، وما زالت أعمالها العلمية والأدبية تدرس في مختلف المعاهد التعليمية في الدولة، وهي بمثابة الخنساء الشاعرة العربية في إجادة الرثاء وكثرة البكاء للمفقود. لقد كتبت بحوث-لا بأس بعددها-عن التجربة الشعورية بمختلف التناول والدراسة، فمنها مقالات تم نشرها في بعض مواقع الانترنيت، كمقالة كتبها بطروس حلبي بعنوان "التجربة الشعورية وشخصية الشاعر" في عام ٢٠١١م، ومنها مقالة بعنوان "الشاعر والشعور" لموسى ديب الخوري. ومن هذه البحوث أيضا، ما تم نشرها في المجلات الأكاديمية المتنوعة، كمقالة بعنوان؛ "التجربة الشعورية في قصيدة زهرة الأحلام: دراسة فنية" لأحمد عبد الرحمن الحاج، أصدرت في العدد الأول لمجلة الآفاق بجامعة ولاية بوشي، غطو، نيجيريا، في المجلد الثاني سنة ٢٠١٨م. وأما هذا البحث فعنوانه: "التجربة الشعورية في شعر أسماء بنت عثمان بن فودي: دراسة أدبية لنماذج مختارة"، نهجت الباحثة المنهج التاريخي والوصفي والتحليلي للوصول إلى أهداف هذا البحث، من حيث الاعتماد على إجابة الأسئلة الآتية: ما المفهوم بالتجربة الشعورية؟ من هي أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي؟ وما هو لون التجربة الشعورية في نصوص أبيات شعرها؟ ما مدى توافق معانيها وانسجامها مع شعورها؟ هل استطاعت الشاعرة أن تنقل مشاعرها إلى القارئ للأبيات؟

المبحث الأول: المفهوم بالتجربة الشعورية في الشعر العربي

قبل الكلام عن المقهوم بالتتجربة الشعورية في الشعر العربي فإنه من المستحسن أن يذكر معنى التركيب في اللغة واصطلاح العلماء أولا. فالتجربة الشعورية تركيب مركب من كلمتين هما "التجربة" و"الشعورية" ولكل منهما معنى ومقصد.

وأما "التجربة" في اللغة فأصلها من "جرَّبَ يجرِّب تَجْرِبةً وتَجْرِيبًا فهو مُجرِّب اسم الفاعل أو مُجرَّب اسم المفعول، وتجمع على تجارب، وهي الدراية والخبرة.٣ وفي

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الاصطلاح هي اختبار منظّم لظاهرة أو ظواهر يُراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة للكشف عن نتيجة ما أو تحقيق غرضٍ معيَّن، أي ما يحصل من المعرفة بالتكرر، وقيل هي معالجة الشيء مرة بعد أخرى حتى يحصل ذلك العلم بنظائرها.٤ يقال التجربةُ أمُّ العلم.٥ ومعناها في الآداب هي مجموعة المشاعر والأفكار التي تتراكم في خاطر الفنان أو الشاعر أو الأديب، فتجول في نفسه وتؤثر في تعبيره، يقال: "من عرف التجارب طابت له المشارب"٦. وأما "الشعورية" فهي لفظ من "شعور" ومصدر شعَرَ بـــ، ومعناه إحساس، وهو إدراك بلا دليل طبعيا، وفاقد الشُّعور هو عديم الإحساس. ٧ ومعنى اللفظ في اصطلاح علماء النفس هو علم بما في النفس أو بما في البيئة، وعلى ما يشتمل عليه العقل من إدراكات ووجدانيات ونزعات، ولذا قالوا:"إن للشعور ثلاثة مظاهر، وهي الإدراك والوجدان والنزوع.٨

والتجربة الشعورية في الشعر العربي، فهي من الاصطلاحات الجديدة التي شاعت في محيط الأدب والنقد في مطلع العصر الحديث عند الشعراء المجددين والمحافظين، وخاصة الشعراء الذين يهتمون بالعاطفة، وقد اشترطوا في الشعر الجيد أن يصدر عن الشعور الصادق بالموضوع الذي ينظم فيه الشاعر شعره مع القدرة على صياغة هذا الشعور في ألفاظ واضحة ذات إيقاء موسيقى مناسب.٩ ثم وضع النقاد والأدباء للتجربة الشعورية تعريفات عدة، فمنهم من قيدوا ها إدراكا للعمليات الحسية بالانفعالات الوجدانية، أي هي تعبير عن حالة الاستثارة التي يكون عليها الشاعر عندما يواجه موقفا من المواقف أو الأحوال التي تثير فيه الخوف أو القلق أو الغضب أو الفرح...١٠ ومنهم من اعتبرها كمرجع اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا إلى مجرد المهارة الفنية أو الشكلية.١١ ومنهم من يبالغ أكثر فحدها على كل تأليف أدبي فيقول: "هي الحالة النفسية والعقلية التي يكون عليها الشاعر ساعة إختراع العمل الأدبي".١٢ ومنهم من رآها أنها هي الموقف الذي يعرض له الشاعر وتأثر به وتفاعل معه نفسيا عبر أحاسيسه ومشاعره أولا، وثقافته ورؤيته الفكرية ثانيا.١٣

يقول أحمد عبد الرحمن الحاج في مقالة له موضحا عن المقصود بالتجربة الشعورية للشاعر:"فالشاعر الحق هو الذي تتضح في نفسه تجربته ويقف على إجرائها بفكره ويستغرق فيها لينقل إلينا في أدق ما يحيط بها من أحداث العالم الخارجي فتمثل فيها الحياة وألوان الصراع التي تتمثل في النفس أو في الفرد تجاه الأحداث التي تحيط بها، بل إن التجربة التي تنبض بالحياة تفتح عين الشاعر على حقائق الحياة أو حالات النفس بطريقة قد تبدو بعيدة عن كثير من الناس، وقد تقصر مفردات اللغة نفسها من الكشف عنها، لأن الصورة الشعرية وما تتضمنه من إيحاء هي أقوى تعبيرا وأعظم أثرا."١٤ وترى كاتبة هذا البحث أن التجربة الشعورية لشاعر هي موقف يجد الشاعر نفسه فيه من دون استعداد، فيدرك عقله الموقف مباشرة، وينفعل به وجدانه حالا، فيؤثر على إحساسه وانفعالاته العاطفية، ثم يعبر عنها-عاطفته أو وجدانه- خلال أبياته الشعرية باستعمال مجموعة من الألفاظ والتراكيب التي تناسب الموقف مع المطابقة بالموضوع معنا غرضا. امتازت التجربة الشعورية بعناصر عدة، وسيكتفي هذا البحث بذكر هذه الثلاثة الآتية؛ وهي: ١٥ الوجدان أو العاطفة: وهي مشاعر اللذة والألم والفرح والحزن والحب والكراهية. الفكرة: وتأتي ممتزجة بوجدان الأديب ونابعة منه... الصور التعبيرية: تشتمل على تحديد هذه الصور وهي؛ الألفاظ والتراكيب والصور والموسيقى أو الإيقاع في الشعر، وما إلى ذلك.

المبحث الثاني: التعريف بالشاعرة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي

مولدها نسبها ونشأتها:

هي أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي المجدد للحركة الإصلاحية في نيجيريا. ولدت في عام ١٧٩٤م١٦ فيما يسمى اليوم بنيجيرية في القارة الأفريقية الغربية. وفي مراجع أخرى فتاريخ ولادتها سنة ١٧٩٣م.١٧ وكان أبوها معلما وفقيها ومهتما بتعليم أولاده الذكور والإناث، نشأت الشاعرة تحت كفالة أبيها وأمها، إلا أن أمها توفيت ولم تظل طفلة، فكفلتها واحدة من أزواج أبيها-الشيخ عثمان بن فودي- ، وهي عائشة العابدة التي قيل إنها بلغت مبلغ الرجال في التصوف والتقى والعمل، وبهذا يرى الباحثون أن أسماء تأثرت بها في تلك الخصال الحسنة المذكورة.١٨

زواجها وأولادها:

تزوجت أسماء بنت عثمان بن فودي بغطاطو١٩ المصطفى بن ليما، وزير لأبيها الشيخ عثمان بن فودي، وهو صديق أخيها أمير المؤمنين محمد بلّو بن عثمان بن

فودي، وكانت عنده بصكتو منذ أن تزوج بها وكانت في الثانية عشر من عمرها إلى أن توفيت.٢٠ جاء في كتاب فن المديح في مدينة صكتو للبروفيسور سمبو ولي جنيد أنها قد أنجبت ستة من الأبناء،٢١ وأما الكاتب كبير تدن نفاوا فقد بين في كتابه أن السيدة أسماء أنجبت لزوجها المصطفى بن ليما خمسة أولاد كلهم ذكور وهم: عبد القادر وأحمد وعثمان وعبد الله ومحمد.٢٢

أخلاقها صفاتها وعلمها:

كانت السيدة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي مثالا للنساء العفيفات المسلمات طيلة حياتها؛ لاتصافها بصفاة محمودة وأخلاق طيبة، بدأت تعلمها عند أبيها وزوج الأب ثم أخيها محمد بلّو وأختها خديجة بنت عثمان بن فودي وخالتها عائشة ثم زوجها المصطفى، حفظت القرآن الكريم وتعلمت القراءة والكتابة والعلوم الإسلامية من التجويد والفقه وأصوله داخل المكتبة الكبيرة التي كان أبوها يمتلكها، وقد قيل إنها تعلمت جميع الفنون العلمية عندهم. وامتازت بإتقان اللغة الهوسوية والفلانية والعربية وتجيد اللغات الثلاثة قراءة وكتابة وترجمة، وقرضت الأشعار بجميع اللغات المذكورة، وقد ساعدها تبحرها في العربية على إنتاج أشعار كثيرة في العربية. وهي في الشعر العربي النيجيري بمنزلة الخنساء بين العرب.٢٣

أعمالها الخيرية نحو مجتمعها:

ولما وقعت الحرب الأهلية في المنطقة وتسببت بآلاف القتلى، وجدت الشاعرة أسماء انتشار الأيتام والأرامل النساء اللاواتي فقدن بعولتهن وكفيلهن، ولا يعرفن عملا ولا علما، فبدأت بحلقات في تعليم النساء تعليمات الدين الإسلامي والقراءة الكتابة، وبعض الأعمال اليدوية المختلفة كي يساعدن بها أنفسهن... ولما استقرت الحركة الإصلاحية التي قام بها أبوها الشيخ عثمان بن فودي في بلاد هوسا ومناطق المجاورة-في القرن التاسع عشر بالتحديد-، نظم أبوها الشيخ عثمان بن فودي تعليمه ووعظه وإرشاداته للنساء، وخصص لهن أوقات للتعليم، وكانت السيدة أسماء ضمن العالمات اللواتي تتلمذن على يد الشيخ، فتولّت هي وهن على تدريس النساء في نظام مزدهر، وهو الذي عُرف في تاريخ خلافة صكتو الإسلامية، وتم ذلك بتأسيس مدرسة العالمة المربية أسماء بنت عثمان بن فودي سنة ١٨٤٠م.٢٤ ولا ينسى التاريخ ما قدمت السيدة أسماء لبناء بيئتها وتربية اليتامى وتعليم النساء، ومعونة الفقراء والمحتاجين بالطعام والثياب التي كانت تجمعها هي وطائفة من الأغنياء في القرى ثم توزعها للفقراء في البوادي.٢٥

آثارها العلمية والأدبية:

تركت السيدة أسماء مجموعة من المؤلفات فيما يتعلق بالمواد اللغة العربية والدين الإسلامي وعلومه، بعضها في اللغة الهوسوية والفلاتية وبعض الآخر في اللغة العربية. كما تركت مجموعة من القصائد في المدح والرثاء والوعظ، ومن أشهر أشعارها:٢٦ تائيتها لرثاء أخيها في عشرين بيتا، ودالياتها التي مدحت بها أحمد بن محمد عند سفره إلى الحج، ورائيتها التي ترحب بها الشيخ سعد إثر عودته من مكة المكرمة، ورائيتها في رثاء أخيها محمد بلّو بن عثمان بن فودي، ولاميتها في رثاء صديقتها عائشة، وتائيتها في رثاء عائشة نفهسا أيضا. وأما جانب النثر فلها مؤلفات جمة منها:٢٧ خصائص السور القرآن الكريم، وتنبيه الغافلين. وقد ساهمت السيدة أسماء مساهمة قيمة في خدمة اللغة العربية عامة والأدب العربي النيجيري خاصة. وكان لمؤلفاتها مكانة مرموقة في نشر وازدهار الثقافة الإسلامية والعربية في الأفريقية الغربية.٢٨

وفاتها رحمها الله:

كان لتاريخ وفاة السيدة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي أقوال مختلفة، منها ما جاء في كتاب فن المديح في مدينة صكتو للبروفيسور سمبو ولي جنيد أنها توفييت بطفل سنة ١٨٦٦م،٢٩ وفي مراجع أخرى قيل إنها توفيت سنة ١٨٦٤م.٣٠ أو في سنة ١٨٦٥م،كما جاء في كتاب المدخل إلى الأدب العربي النيجيري، وهي ابنة واحد وسبعين أو اثنين وسبعين من العمر. وما يزال تراثها باقيا إلى اليوم، والنساء في منطقتها يستخدمن أسلوب تعليمها من أجل نشر العلم والعلوم الإسلامية، وقد تُرجمت أعمالها العلمية والأدبية إلى عدة لغات، وتدرس سيرتها في بعض المدارس الثانوية والمعاهد العليا كمثال للمرأة المسلمة الأفريقية الرائدة.

المبحث الثالث: عرض النصوص الشعرية المدروسة وذكر موجز مضمونها

نص الشعر الأول:

"أ عيني جودا وابكيا لحبيبتي"

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

أعيني جودا وابكيا لحبيبتي
وسلوة أحزاني وأنسا للوعتي
فجودا بسكب الدمع من فقد عائش
حبيبة قلبي وهي أختي ومنيتي
وأثني عليها بالشجاعة والحيا
ودين وأخلاق حسان رقية
ألم تعلموا أن الصداقة لم يكن
لعبد لها شيء إذا ما استقرت
فلا ولد يسلى المحب ولا أخ
ولا مسكن زاه ولا جمع قنوة
وأبكي عليها بالدموع ترحما
وشوقا وتحنانا لصدق المودة
ولم ينه عن هذا النبي وإنما
نهى عن صراخات وياه وآهة
وأدعو إلهي أن يؤمن خوفها
ويرزقها الرحمن حسن المثوبة

نص الشعر الثاني: "إلى الله أشكو من صنوف البلابل"

إلى الله أشكو من صُنوف البلابلِ
ثَوَتْ في سُوَيْداء لقلبيَ داخلِ
لفقْد شيوخ قادة الدين سادة
وإخواننا أخدانَ خيرٍ ونائل
وذكَّرني موتُ الحبيبة من مضى
من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربِّنا
من الحافظات الغيب ذات النوافل
فزادت همومي وانفرادي ووحشتي
وسَكْبُ دموع فوق خدِّي هواطل
لفقْدي لعائشةَ الكريمةِ يا لها
من امرأة حازت صنوفَ الفضائل
من الذِّكْرِ والصدقات ثم تلاوة
وذبٍّ لمظلوم وحَمْلِ المثاقل
كفيلةُ أيتام غياثُ أرامل
وعُمدةُ حيٍّ بالحِبا والتواصل
توحَّشتُ من فقْدي لها وهي صَفْوتي
ومَوْضعُ سرِّي من عصورٍ أوائل

تبلغ جميع أبيات النصوص الشعرية السابقة سبعة عشر بيتا، كلتا القصيدتين مرثية قالتهما أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي-على ما تفيده الرواة- لما وافت صديقتها المنية، وهي عائشة بنت عمر الكم، أي زوج أخيها الشيخ محمد بلّو بن عثمان بن فودي، وكان بينهما-أسماء وعائشة- محبة صداقة عبرت الشاعرة عن ذلك في القصيدتين.

فالقصيدة الأولى تائية وهي على ثمانية أبيات، وضعتها الشاعرة مع قلة الأبيات على أربعة أقسام. القسم الأول من البيتين الأول إلى البيت الثاني؛ استهلت الشاعرة فيهما بخاطب تخاطب بعض أعضاء جسمها، وهما العينين، نادت الشاعرة عينيها تأمرهما بالجود والبكاء على حبيبتها التي توفيت، وكانت تؤانسها في حياتها. والقسم الثاني من البيت الثالث إلى الخامس؛ استمرت الشاعرة بذكر بعض أخلاق المفقودة الحسنة، كالشجاعة والحياء والتمسك بالدين والتحلي بالخصال الراقية، وأعقبت الشاعرة قصيدتها في القسم الثالث بالتساؤل للتشويق وإدراكه لأذهان الناس عن أهمية الصداقة الصادقة المخلصة الوفية وفضلها بين الأصدقاء في البيت السادس والسابع، حيث تسأل عن إمكانية تساوى بين الصداقة وبين شيء آخر بعد استقرار تلك الصداقة في النفس، أي أنه لا يعدل للصداقة الصادقة أخ أو مسكن زاه أو ولد بار أو مال كثير، وما الإتيان بكل هذا إلا ترحما وشوقا وتحنانا وثبوت المودة بينهما، ثم ردت على من قد يعذلها على هذا البكاء أو يلومها على شوقها إياها، فهي في البيتين الأخيرين موضحة على أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينه عن مثل بكائها هذا، إنما النهي عن الصراخات التي تشق الآذان وتحتمل كلمات قبيحة من آه وآهة، ثم اختتمت القسم الرابع بالدعاء للمرحومة، تدعو لها الأمن وحسن الجزاء عند الله سبحانه، وذلك في البيت الثامن الذي هو الأخير.

وأما القصيدة الثانية فهي دالية؛ وعدد أبياتها تسعة، والقصيدة متجزءة من حيث المضمون إلى جزئين، الجزء الأول من البيت الأول إلى البيت الرابع رفع الشكوى إلى الله جل ثناؤه حيال ما حل بالشاعرة من أنواع البلايا، وهي موت الشيوخ والقادة وبعض رجال الدين والعلم وسادة الأمة، وطائفة من الأخوات الصالحات اللاتي وافتهن المنية، وكان موتهم ذكرى لها لموت عائشة بنت عمر الكم، وقد وصفتهن الشاعرة بالأخلاق الحسنة، وهن الفانتات الصالحات وحافظات للغيب، ويهتمن بالنوافل زيادة على الفرائض. وأما الجزء الثاني فهو من البيت الخامس إلى آخر القصيدة، ومضمونه توضيح الشاعرة على أن همومها تضاعفت وازدادت بموت عائشة الكريمة الصديقة الوفية وهي أكرم النساء عندها، جمعت أنواع الفضائل والخصال الطيبة كلها، ككثرة ذكر الله والصدقة وتلاوة القرآن الكريم والدفاع عن المظلوم وحمل المثاقيل وكفالة الأيتام وإغاثة الأرامل وصلة الرحم وكانت قوامة على قومها، واختتمت الشعر أخيرا في الجزء الأخير بإظهار منزلة المفقودة عندها، ووحشتها من أجل هذا الفقد المؤثر لأنها كانت موضع سرها

منذ سنين بعيدة أي زمن قديم.

إن المتأمل لما تقدم يدرك أن الأبيات للقصيدتين اتفقتا في إظهار الحزن على المفقودة، إلا أن الشاعرة رثت أكثر من شخصية واحدة في قصيدتها الثانية. والقصيدتان حجة متينة على ولوع الأعاجم بقول الشعر، وما كان لمشاركة النساء الرجال في الآداء الفني في نيجيريا منذ العصور الغابرة أيضا، فدل كل هذا على تطور اللغة العربية عند الأعاجم وعنايتهم بها أيما العناية. ويبدو أن أسماء حافظت في قصيدتيها على أسلوب يتراوح بين أسلوبين وهما الأدبي والعلمي، أما الأسلوب العلمي المستعمل في القصيتين فهو من حيث وضوح المعاني للألفاظ، وعدم الاحتياج إلى التعمق قبل العثور على معانيها، لأنه يخاطب العقول ويغلب عليه الوضوح. ومما يدل على استعمال الأسلوب الأدبي في القصيدتين فهو من حيث إثارتهما للعاطفة، لأنه أسلوب يخاطب العاطفة والوجدان. وباعتبار مضمون القصيدتين وشكلهما يدرك أنهما اتسمتا بسمات القصائد التي قيلت في القرن التاسع عشر الميلادي في بنجيريا، وذلك من حيث الاتجاه الديني والعناية بالمعنى ووصف المفقود بصفات يستحسنها الشعب في العصر الذي عاشت فيه الشاعرة ٣١ والتزام البحر العروضي بتفعيلاته وقافيته، مع إظهار الحزن والبكاء عليه بالدموع الغزيرة.

ويكفيك في أمر تشبيه أسماء بالخنساء التي تفوقت على كثير من شعراء عصرها إجلالا واحتراما، وتتجلى أوجه المشابهة بين الشاعرتين في براعتهما اللغوية ومنافستهما الرجال في ميدان الشعر وإجادتهما الرثاء، إذ الخنساء عاشت دهرها بين فحول الشعراء حتى فضلت على بعضهم لسلامة ذوقها وبراعتها اللغوية، وأسماء كذلك؛ لأنها عاشت في عصر تكاثر فيه الأدباء بالانتاجات الأدبية الجزلة، فجاءت في الطبقة المتقدمة، والأبيات التي بين يديك شاهدة على ذلك. وقد تأثرت أسماء بالخنساء لما افتتحت-الخنساء- قصيدتها الدالية ترثي بها أخاها صخر، قائلة:٣٢

أ عيني جودا ولا تجمدا ألا

تبكيان لصخر الندى

إلى قولها:

وإن ذكر المجد ألفيته

تأزر بالمجد ثم ارتدى

ويبرز تأثرها - أسماء - بالأشعار السابقة وكثرة قرائتها إياها أيضا. تأمل كيف استمدت بعض الكلمات من رائية قيس بن ذريج٣٣ يتغزل فيها بحبيبته المشهورة عندما هدده معاوية بالقتل إن دامت بينه وبينها مواصلات ودية:٣٤

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى

ومن كرب تعتادني وزفير

المبحث الرابع: تحديد التجربة الشعورية في القصيدتين المدروسين

يبدو فيما تقدم من الأبيات الشعرية السابقة للشاعرة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي أنها قد تأثرت تجربة شعورية صادقة مكتسبة وقت رثائها لصديقتها، وأن شعورها قوي يملك على زمام عقلها حيث لم تكتف الشاعرة بمرثية واحدة لحبيبتها المرحومة، بل زادت عليها مرثية أخرى مشتملة على ماشتملت عليه الأولى من المعنى تقريبا، أي بالمعنى الذي أوردتها القصيدة الأولى. وأما نوع التجربة الشعورية للقصيدتين فهي تجربة ذاتية، لأن الشاعرة قد عبرت خلال أبياتها عن موقفها الخاص حيال موت صديقتها، وقد تأثرت بهذا الموقف وتفاعلت معه. فذاتية الشاعرة في القصيدتين ظاهرة وواضحة، لاتصال معاني النصوص بمشاعر الشاعرة اتصالا مباشرا، وكان لها القدرة على صياغة شعورها وانفعالات وجدانها حول موفقها من فرط الحزن والبكاء، وتعتبر القصيدتين من أجود ما قيل في الرثاء في القرن التاسع عشر الميلادي وهما دليلان على قوة حس الشاعرة وشدة حزنها على وفاة الصديقة، فأدقت في تصوير حزنها وبكائها في صورة تقترن إلى الأذهان بسرعة، وتذهل منها العقول فيشاركها الأحزان من قرأ القصيدتين وفهمها دون أن يدري، ويمكن تحديد التجربة الشعورية في القصيدتين من حيث مراعاة هذه العناصر الثلاثة الآتية:

الوجدان أو العاطفة:

إن العاطفة في القصيدتين صادقة وحارة، وذلك من شدة تأثرها بموقفها وقت رثائها لموت صديقتها الوفية؛ لما بينهما من الصحبة والألفة أيام حياتها، إذ لو أن العلاقة بينهما سطحية لما تتأثر بوفاتها، ولما بكتها بأكثر من قصيدة، ولما وصفتها بكل ما ورد ذكره في القصيدتين من الصفات الحسنة الحميدة. ومما يعتبر من بواعث هذه العاطفة هو موقف الشاعرة الانفعالي الذي دفعها إلى قرض القصيدتين لشخصية واحدة، وهذه البواعث قوية جدا تشير إلى تأثر الشاعرة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بموضوعها الشعري. لقد ارتعدت الشاعرة بموت هذه الصديقة الحبيبة حتى أطلقت زمام شاعريتها لتبكيها سرا في قلبها وجهرا خلال ألفاظها وتراكيبها.

ويدرك أيضا أن الشاعرة أحسنت التهيج والبكاء وإثارة العاطفة إذا تأملت طريقة صياغة القصيدة الثانية حيث أنها لم تباشر الحديث عن المفقودة، بل إنما بدأت بذكر شكواها إلى ربها مما أصابها من أنواع الفقد والوفاة، والبكاء على القادة والصالحات الذين وافتهم المنية قبلها، وذلك من قولها في البيت الأول إلى البيت الرابع من القصيدة الثانية إلى البيت الرابع، إشارة إلى شدة وضعها وموقفها، فكأنها تثير غضب القارئ والمستمع إليها حتى يتأثر بها ويشاركها في شعورها، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قرابتها بالمرحومة وقوة عاطفيتها وصدق شعورها تجاه فقدها.

ومأ مشاعرها فمنها الحزن والغم والاكتئاب والهم والصحبة الصادقة. وسمات العاطفة في النصوص الشعرية السابقة صادقة حارة تعود إلى موقف الشاعرة الحزين، وأنها حافظت على سلامة اللغة وأصالتها واختيار الألفاظ المناسبة والعبارات الجليلة النقية التي تطابق مقتضى الحال وتناسب الغرض وتلائم الموضوع.

الفكرة:

باعتبار أبيات القصيدتين المدروستين يدرك أن أفكارها ممتزجة بوجدان الشاعرة نحو إحساسها، وهي أفكار نابعة نتيجة شعورها الداخلية وانفعالاتها بها. تأمل أفكار القصيدة الأولى تجدها متسلسلة مترابطة تناسب موفق الشاعرة وقت قرض الشعر، بدأت بالنداء للقريب جلبا للأذهان والألباب، ثم ذكر الحزن والثناء وذكر المحاسن، ليعلم القارئ أن التي تُرثى في القصيدتين جديرة بالرثاء، وأما عودتها إلى البكاء –في القصيدتين- قبل الختام بعد ذكره بداية فهو عدم تسلسل الأفكار، ولكن ذلك إظهار لمدى تغلب الحزن عليها وصدق حبها لمفقودتها، تأمل ذلك في البيت السادس في القصيدة الأولى في قولها:

أعيني جودا وابكيا لحبيبتي

وسلوة أحزاني وأنسا للوعتي

وقلها في القصيدة نفسها:

وأبكي عليها بالدموع ترحما

وشوقا وتحنانا لصدق المودة

رتبت الشاعرة أفكارها العميقة على تسلسل وترابط، بدأت بالشكوى والسبب في ذلك-وفاة الشيخ وبعض نسوة صالحات- وما لسبب تضاعف الهموم والحزن عليها، ثم سكب الدموع من أجل الهموم وذكر الخصال التي اتصفت بها الصديقة.

الصور التعبيرية عن عاطفة الشاعرة:

فهي أدوات التعبير عن التجربة الشعورية كما مر في السابق، ويمكن تحديدها فيما يلي:

أ- الألفاظ وقدرتها على تحمل الطاقات العاطفية:

والألفاظ هي إحدى الدعائم الأساسية لبنية القصيدة، وإحدى أدوات الشاعر المستخدمة ليخلق نصا معبرا عن تجربته.٣٥ ففي النصوص الشعرية السابقة ألفاظا توحي بمشاعر الحزن والاكتئاب من عند الشاعرة أسماء بنت عثمان بن فودي، حيث اختارت لقصيدتيها ألفاظا رائعة تبين خلالها ثقافتها وبراعتها في الإبداع الشعري، وطبعت الألفاظ من حيث السياقات بطابع أحاسيسها ومشاعرها وعواطفها وتحمل في الوقت نفسه مدلولات معجمية مناسبة بالحزن والهم، والصداقة الحقيقة؛ منها: أحزاني، بالدموع، شوقا، تحنانا، آه، آهة، فمثلا إذا أخذت لفظ "آه" و"آهة"-في القصيدة الأولى- فالثاني مصدر الأول، وهو اسم فعل، صوت يخرج من الإنسان توجعا أو شكاية، وبعبارة أخرى، يستعمل للتوجع أو الشكوى أو التحزن، كقول آه من المويض.٣٦ وأما في القصيدة الثانية فتدرك ذلك في مجموعة من الألفاظ، منها؛ البلابل، قلبي، موت، همومي، انفرادي، وحشتي، وما إلى ذلك. ولقد حملت هذه الألفاظ تلك الطاقات الشعورية الثقيلة التي أرادت الشاعرة بثها في نصوصها الشعرية مع إرسال معانيها إلى الأذهان كي تصل إلى الوجدان. واستخدمت الشاعرة هذه الألفاظ على انفعالها الشعوري، بحيث تعمل الألفاظ عملها من دون زيادة ولا نقصان، وقد انجسمت معانيها مع أفكارها، وألفاظها سهلة لا يتنافر حروفها، وهي سهلة النطق على اللسان، ولا تثقل على الآذان لسلاستها وجريانها مع النفس، وكان بمقدور هذه الألفاظ على تحمل الطاقات العاطفية للتعبير عن مشاعر الشاعرة لارتباطها بهذه المشاعر، تأمل قولها في هذا البيت:

وأبكي عليها بالدموع ترحما

وشوقا وتحنانا لصدق المودة

ب- التراكيب وقدرتها على تحمل الطاقات الشعورية والعاطفية:

كانت عبارتها قوية تدل على مدى تبحرها في اللغة من دون تكلف ولا تصنع حتى تستشعر بها صدق عاطفتها ومشاعرها عن همومها وحزنها لموت صديقتها، فذلك ظاهر في تراكيبها وصورها المعانية، حيث ساهمت التراكيب في توضيح المعاني وإثارة المشاعر، وقد كشفت هذه الراكيب عن عاطفة الشاعرة الرقيقة، ونقلت الشعور إلى القارئ أو المستمع لقصيدتيها حتى يعيش حالة الانفعالية التي أرادت الشاعرة إيصاله إلى وجدانه.

ج- الصور وقدرة الشاعرة على تصوير شعورها وتجسيده.

بالرغم من قلة استعمال الصور البيانية في القصيدتين فلا تكاد تطلع على تراكيبهما إلا وتجد فيهما بعض الصور البلاغية، منها؛ أساليب إخبارية، كالنداء والأمر والدعاء. فأما النداء فهو عند استعملها "الهمزة" أي حرف للنداء على القريب، في البيت الأول من القصيدة الأولى، وكانت بفصاحتها تنادي عينيها بهذا الحرف "الهمزة" إشارة إلى قربهما منها حيث تقول: "أ عيني جودا وابكيا لحبيبتي"، وأما الأمر فمنه ما جاء في المقطع نفسه "جودا وابكيا"، ويظهر الدعاء في البيت الأخير من القصيدة الأولى حيث جاء في التركيب بلفظ "أدعو" في هذا البيت:

وأدعو إلهي أن يؤمن خوفها
ويرزقها الرحم حسن المثوبة

ويبدو أن الشاعرة اكتفت ببعض الأساليب الإخبارية عن الصور البيانية في قصيدتيها، منها ما تم ذكرها سابقا ثم التشخيص٣٧ والتمنى الظاهر في مخاطبة غير العاقل وهما العينين.

د- الموسيقى والإيقاع في القصيدتين:

وموسيقي القصيدة الأولى والثانية تتمثل في الوزن والقافية والروي، اختارت الشاعرة لقصيدتيها لونا من الأنوان الموسيقى التي تلائم بنغمة الحزن والتحنان، وهي واضحة ومؤثرة، وتسير جميع الأبيات الشعرية على البحر الطويل الذي تميز بتمام أجزائه، ذلك البحر العروضي الذي يتكون من ثمانية أضربة، أي تفعيلته ثمانية وهي:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ويناسب هذا البحر مشاعر الشاعرة، فجاءت أبيات القصيدة الأولى بروي "التاء" المكسورة، والقصيدة الثانية بروي "الدال"المجرور، ووضعت التفعيلات بأضرب؛ منها المقبوضة، أي مجيئ التفعيلة الأخيرة على "مفاعلن" بدلا من "مفاعيلن" وحدث هذا في جميع أواخر الأبيات للقصيدة الأولى، ومنها الحذف لبعض الحروف لإقامة الوزن وتناسب الضرب، راجع كلمة "عائش" في هذا البيت:

فجودا بسكب الدمع من فقد عائش
حبيبة قلبي وهي أختي ومنيتي

تجد اللفظ محذوف التاء في الأخير، فأصل الاسم "عائشة"، وهكذا لفظ "الحيا" في البيت الآتي من القصيدة الأولى نفسها:

وأثني عليها بالشجاعة والحيا
ودين وأخلاق حسان رقية

حذفت الهمزة في لفظ "الحياء" وقالت: "الحيا"... والظاهر هو أن كثير من الأبيات للقصيدتين قد دخلت فيها الزحافات والعلل؛ ولكن مع ذلك فقد استطاعت الشاعرة أن تبعث مشاعرها إلى قارئ القصيدتين أو المستمع إليهما، وقد تجده ينقعل معها في التجربة الشعورية.

الخاتمة

يتضح مما تقدم أن التجربة الشعورية موقف عاطفي خاص يؤثر على الشاعر ويتفاعل معه فيعبره خلال ألفاظ وتراكيب وصور تناسب ذلك الموقف غرضا ومعنى. والشاعرة أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي من الأدباء النيجيريين الذين ساهموا في ميدان قرض الشعر في القرن التاسع عشر الميلادي. والمتأمل في نصوص شعرها الأول والثاني يجد أن جميع الأبيات قالتها في رثاء صديقتها الوفية عائشة بنت عمر الكم. ومن النتائج التي توصلت إليها الباحثة؛ أن النوع التجربة الشعورية في القصيدتين ذاتية لإبراز ذاتية الشاعرة فيهما، وأن عاطفتها صادقة وحارة لشدة تأثرها بموقفها الحزين ومشاعرها المهموم، وقد اختارت الشاعرة ألفاظا وعبارات جلية وسهلة تناسب أفكارها الممتزجة بوجدانها وانفعالاتها، وقد استعانت ببعض صور معانية للتعبير عن شعورها، والبحر العروضي المختار للقصيدتين يناسب موقفها وحال نظمها، وقد استطاعت على إرسال موضوعها المنسجم بطاقتها العاطفية إلى القارئ فتمكنت لها القدرة على نقل معنى ذلك الموضوع وإيصاله إلى القارئ.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر والمراجع والهوامش

١ أحمد عبد الرحمن الحاج، التجربة الشعورية في قصيدة زهرة الأحلام: دراسة فنية، نشرت في مجلة الآفاق، جامعة ولاية بوشي، غطو، المجلد الثاني، العدد الأول، ٢٠١٨م، نقلا عن الفلاحي، أحمد علي إبراهيم، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري: دراسة اجتماعية نفسية، الطبعة الأولى، دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م، ص ٢٦٧

٢ أحمد عبد الرحمن الحاج، المرجع السابق نفسه، ص١

٣ الحدادي المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ٩١

٤ الحدادي المناوي، المرجع نفسه والصفحة

٥ عمر، أحمد مختار عبد الحميد (الدكتور)، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى،٢٠٠٨ م، ج ١، ص ٣٥٧

٦ -https://www.almaany.com/ar/dict/ar

٧ عمر، أحمد مختار عبد الحميد (الدكتور)، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٠٧

٨ عمر، أحمد مختار عبد الحميد (الدكتور)، المرجع نفسه والصفحة. إنما جيئ بمعني اللفظ عند علماء النفس في هذا المقف لاتصال الشعور بنفسية الإنسان

٩ عازل، حسنى محمد حسن، تيارات ومذاهب أدبية حديثة، المصرية لخدمة الكمبيوتر، د.ت، ص ٢٨٣.

١٠ مقالح، عبد العزيز، ثلاثيات نقدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠١م، ص ١٥

١١ شنطي، محمد صالح، النقد الأدبي الحديث، مدارسه ومناهجه وقضاياه ودراسات نقدية تطبيقية، دار الأندلس للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، ص٥٣

١٢ أحمد عبد الرحمن الحاج، المرجع السابق، ص٢. نقلا عن النقد النفسي عند العرب والغرب: عرض ونقد، يناير٢٠١٧م، http://www.eshar.net

١٣ يحيى، أمين، العمل الأدبي لا يقصد مجرد التعبير عن الشعورية، http://ww.bayt.com، ٢٠١٦م، نقلا عن مقالة بعنوان "التجربة الشعورية في قصيدة زهرة الأحلام": دراسة فنية لأحمد عبد الرحمن الحاج، مجلة الآفاق، جامعة ولاية بوشي، غطو، نيجيريا، المجلد الثاني، العدد الأول، ٢-١٨م ص٢

١٤ أحمد عبد الرحمن الحاج، المرجع السابق، ص ٣

١٥ التجربة الشعورية، منتديات لكل الجزائري والعرب، http://www.djelfa.info، ٢٠١٤، ص ١

١٦ تدن نفاوا، كبير آدم، المدخل إلى الأدب العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي، دار الأمة، كنو، الطبعة الثانية، ج ٢، ص١١٣

١٧ وجوه وأعلام، "أسماء بنت عثمان فودي الأديبة المربية ورائدة تعليم النساء في نيجيريا، ٢٠١٧م، ص ٣ ،www.lahaonline.com، ٢٠١٧م

١٨ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص١١٣

١٩ جنيد، ولي سمبو، الأستاذ الدكتور، فن المديح في مدينة صكتو بناؤه وأسلوبه من ١٨٠٤م -١٩٦٠م، دار القلم، بيروت، د.ت، ص ١٢٩

٢٠ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص١١٣

٢١ جنيد، المرجع السابق، ص١٢٩

٢٢ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص١١٣

٢٣ جنيد، المرجع والصفحة، ص١٢٩

٢٤ وجوه وأعلام، المرجع السابق، ص ٢

٢٥ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص ١١٥

٢٦ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص ١١٤

٢٧ تدن نفاوا، المرجع السابق، ص١١٤

٢٨ الحسن، سالو، "جهود نانا أسماء نتب الشيخ عثمان بن فودي في نشر الثقافة العربية والإسلامية في خلافة صكتو بنيجيريا"، ٢٠١٥م، ص ٤،

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

www.thakafamag.com

٢٩ درما، علي حمزة، رسالة الماجستير بعنوان: مساهمة المرأة الهوسوية المتعلمة في ميدان التعلم الديني في بلاد هوسا، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو، د.ت، ص٥٢

٣٠ وجوه وأعلام، المرجع السابق، ص ٣، www.lahaonline.com

٣١ غلادمثي، شيخ أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة ١٨٠٤ إلى سنة ١٩٦٦م، الطبعة الثاني١٩٩٣م، ص ١١٢

٣٢ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧ م، ج ٤، ص ٤١

٣٣ هو واحد من أبناء الأثرياء الذي عشق لبني في زمن معاوية بن أبي سفيان

٣٤ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ج٢، ص ٢١٣

٣٥ أحمد عبد الرحمن الحاج، المرج السابق، ص ٩

٣٦ راجع معجم الرائد ومعجم الغني

٣٧ التشخيص: أسلوب يستنطق فيه الجمادات، يبعث إليها خطابه ويصورها وكأنها ذات إرادة، فيحادثها ويحاورها ويناجيها ويكلمها وتكلمه ويضفي عليها صفات الإنسان، فتفعل فعله وليست كذلك في واقع الأمر. واجع التحرير الأدبي للدكتور حسين علي محمد حسين، مكتبة العبيكان، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤م، ص٢٦

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2